المكتبة العتيقة
61 نهج جامع الزيتونة تونس

مقدمة الطبعة الثانية

التعريف بالكتاب

موضوعه وزمنه :

هو تاريخ موجز المغرب العربي في القرون الهجرية : 6 ـ 7 ـ 8 ـ 9 ـ المقابلة للقرون الميلادية : 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ يشمل دولا كبرى قامت بالمغارب الثلاثة ـ مراكش ـ تلمسان ـ تونس ـ ، ودويلات محلية متخلفة من فوضوية الزحفة الهلالية المعروفة كانت تظهر احيانا في ظروف الفتن وتختفي عند الاستقرار .

والغرض الاساسي منه تدوين تاريخ الدولة الحفصية بتونس حيث كان مؤلفه شاهد عيان لما عاصره منها ، ورواية ثبتا ـ عن ائمة اعلام ـ لما سبقه من اخبارها .

ولما كانت هذه الدولة متفرعة عن الدولة الموحدية بالمغرب ـ منذ حركة التوحيد التي قام بها عبد المؤمن بن علي سنة الاخماس 555 ـ فقد اتى المؤلف بمجمل تاريخ تكوينها وتطورها وحركتها ـ خصوصا في ملاحقة الموارقة اعقاب خصومها المرابطين بالتراب التونسي ـ ومنذ نشأت الدولة الحفصية عن حركة من تلك الحركات أخذ التاريخ اتجاهه وتخصص بموضوعه الحفصي في تونس التي كانت تحتضن اذ ذاك طرابلس ونحو نصف جزائر اليوم ، ولم يهمل مصاحبة الاحداث الكبرى في المغربين الاوسط والاقصى جامعا اجزاء المغرب في تلك الحقبة الزمنية التي تنتهي سنة 882 هـ ـ (1478م) حيث دون آخر حدث تقف عنده النسخة التونسية ، وآخر امتداد يمكن اعتباره لذلك ما ذكر من التغيير في رجال دولة السلطان عثمان سنة 887 (ص 135)

ـ مما ورد في ترجمة المؤرخ بالاعلام للزركلي (192/6) من امتداده الى سنة 932 ـ اي ما يقارب نصف قرن آخر ـ كما بنسخة باريس ـ مستبعد جدا ، لان حياة المؤرخ لا يظن بها البلوغ الى ذلك كما سيذكر في ترجمته مع ما يقال من ان الاحداث المزيدة بنسخة باريس منقولة من «المونس» الحقها الناسخ اعتباطا ، ولئن كان هذا القول محتاجا الى تثبيت ووقوف على النص فهو على كل حال مما يشكك في رواية الاعلام ويغري بتحقيق هذه الزيادة على عين النسخة الباريسية ومقابلتها بغيرها من الاصول والتواريخ ، وما ذلك على همم المحققين بعزيز .

قيمته التاريخية :

تلك الحقبة الزمنية المشار اليها هي الاكثر غموضا وشحا بالاخبار في

التاريخ التونسي بالاخص ، فالقرن التاسع ــ الذي ياتي بعد نهاية تاريخ ابن خلدون لم يأت من يؤرخه بمثل تحقيقه وربط اجزائه ووصل منقطعاته ، وكل ما لدينا من المعلومات عنه مستمد من هذا الكتاب ، وبانقطاعه عميت الاخبار وضلت السبل ، حتى ان ابن ابى دينار فى تاريخه المونس لم يتردد فى الاعتراف بذلك اذ يقول :

« وهنا انتهى النقل الذى قيده الزركشي ولم اطلع على ما سواه الا ما تلقيته من أهل الحاضرة وانا ناتى به جملا لا تفصيلا ، ولم اقيد نفسى بتاريخ الوقائع لقلة الضبط »

ففى هذا الظرف بالاخص تتاكد الحاجة الى هذا الكتاب الذى حفظ للبلاد ناحية مهمة من تاريخها الدولى والعلمى والقضائى وأرخ شخصيات من رجالها كانت بمدرجة الضياع لولاه ، مع ما استعرضه من تاريخ الوظائف والعمالات والاعراف والعادات والحرف والصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يعرف من سواه ، وكان ــ لعنايته بتاريخ الاعيان ــ كلما ذكر انتقال قاض او مفت او خطيب او موظف سام سمى خلفه فى الخطة بحيث يتاتى من صنعه جمع ثبت متصل الحلقات فى هذه الوظائف العليا ، مع المامه بالوقائع الحربية واسبابها ونتائجها وآثارها ·

نهجه ومصادره :

هو كغالب التواريخ المعروفة فى ذلك العصر ــ مرتب على السنين باختصار خل احيانا ، وعمدته فى النقل ابن خلدون فى تاريخه ، وابن قنفذ القسنطينى فى الفارسية ــ ويعبر عنه بابن الخطيب ــ فاذا خرج عنهما قصرت عباراته واعتورتها العامية ، وقد يخطىء فيما هو خارج عن تونس كوفاة العقبانى (ص 145) وقد يضطرب فيما هو سابق عن عصره كانتحال المستنصر الخلافة (بين 33 ــ 37) بل وما هو فى عصره كوفاة ابن ابى هلال شيخ الموحدين (بين ص 151 ــ 152) وفيما عدا ذلك لا يخرج عن نهج الصواب ·

الأصل المعتمد فى الطبع :

ان حضرة الناشر قد اعجلته ظروف الطبع عن اعداد نسخ متعددة للمقابلة فجعل النسخة المطبوعة بالمطبعة الرسمية التونسية سنة 1289 اصلا لهذه الطبعة ــ وكانت غير خالية عن التصحيف والتحريف ــ فوقعت مراجعة اصول نقلها ومقابلتها بنقول المؤلف وامكن الوصول الى اصلاحات جوهرية كادت تستقر بها هذه الطبعة على اساس الصحة لولا ان ندت اخطاء مطبعية وضع لبعضها جدول تصويب ، وباقيها يدركه الذوق السليم ، ومما يقف كل عقل عنده ، ان الكمال لله وحده ــ

التعريف بالمؤلف

أصلـــه :

هو محمد بن ابراهيم بن اللؤلؤ الزركشي – كذا نسب نفسه في فاتحة شرحه على الدمامينية – وفي عقد اشهاده الآتي حديثه • (اللؤلؤي) – وكذا بعنوان تاريخه – نسبة الى جده اللؤلؤ،ولا يوجد فيما ينتسب اليه أعلى منه،وذلك يدل على انه مملوك مجهول الأصل ، تتونس وسلك في تكوين عائلته وتسمية بنيه مسلك ابناء البلاد ، اما حفيده المترجم فولادته بتونس وحريته لا يشك فيهما لمكان عمله المنافي للرق ، وميلاده يقدر على حسب ما سيذكر من تاريخ تعلمه بحدود سنة 820 وكل هذا على سبيل التقدير اذ لا يوجد مصدر لترجمته تمكن الاستفادة منه لفقد المعلومات عن عصره •

عصـــره :

اما عصره – ونعني القرن التاسع بالاخص – فهو اقسى عصر على العالـــم الاسلامي كله ، حيث فقد الاتصال بين اجزائه وصار ملوكه بعضهم لبعض عدوا لا ينظر الا في التوسع على حساب جيرانه غير شاعر بالاخطار الخارجية التي بدات تهدد الجميع • ولا بالنذر المتوالية المؤذنة بالمكاره وسوء العاقبة ، فالانـــدلس تعـــاني حـــالة احتضـــار ، والمغـــرب تـــدول فيه دولة بني مـــرين العتيدة الى الاشراف ثم الوطاسيين وتسقط ثغوره تباعا ، وتونس تضطرب بالروات القبلية والحروب الاهلية لكنها كانت اسعد حالا بتمهيد فترة استقرار سبقت القرن المذكور بقليل في مدة ابي العباس احمد الحفصي ثم ابنه ابي فارس عبد العزيز ثم حفيده ابي عمرو عثمان ، هؤلاء الثلاثة هم امجاد بيتهـم واعيان زمنهم ، تداركوا رمق دولتهم واقاموا لها هيبتها ومكنوا نفوذها ، وبذلوا في سبيل ذلك جهودا ، وواجهوا حروبا تلفى مفصلة بهذا التاريخ ، وآخرهم نشاطا في ذلك هو عثمان الذي طالت مدته حتى جاوزت الخمسين عاما (839–893) وتعددت حركاته في سبيل توطيد الامن حتى استقامت الدولة على وهن ، وقلت نزوات الفتن ، ولكن لكل شيء نهاية ، ففي شيخوخته بدات نواشب الفساد تعمل في كيان الدولة – وانما اوقفتها موقتا عوامل هيبتـــه – وبانطوائه بان العجز وتفاقم الخلل حتى آل الامـــر الى الاحتـــلال الاسبـــاني كما هو معلوم •

وكانت له نذر من فقد كفاة الرجال الذين يقدرون الظروف ويسددون ويقاربون وقيام اخلاف لا يهمهم الا بقاء العادة التى بها يدينون ، فرجال الدولة جمدوا على تقاليد ألفوها ، ومنافسات توارثوها ، ومتع استطابوها ، ولم يفكر احد منهم فى اعداد قوة او تجديد سلاح او تحصين ثغر حتى سقطت البلاد بسهولة عند اول صدمة والعلماء عكفوا على تدوين مختصرات الفقه التى راجت فى ذلك العصر وقصروا جهودهم على دراستها ومناقلتها ولم يعنوا بغيرها حتى لم يبق فى البلد كاتب يدون اخباره ، او اديب ينضد اشعاره ، وقد احصى المؤلف فى آخر شرحه على الدمامينية ــ الشعراء الذين مدحوا السلطان عثمان فذكر منهم : ابا على عمر الغرناطى ، وابا الخير المالقى ، وابا على منصور الجزيرى ــ من الاندلس ــ واحمد بن ابى العمر الفاسى ــ من المغرب ــ وابا العباس بن الخلوف القسنطينى وهو الوحيد الذى حلاه ونوه به ونقل من شعره، مما يدل على ان الاخرين مرتزقة جوالون لا قيمة لهم ولا لشعرهم ، ولم يذكر من التونسيين الا عمر ابن قليل الهم وهو موظف من رجال الدولة (انظر ص 135/145) وشاعر مناسبات لم يبق له الدهر ذكرا و لا شعرا .

بيد انه من الجدير بالملاحظة ان هذا الفقر الادبى لم يكن فى تونس خاصا بهذا العصر ــ وانما هو فيه اظهر ــ بل كان ساريا مع كامل مدة الدولة الحفصية التى درجت على اعتبار بلدها دار فقه معين : لا دار ادب وتفنن ، ولذلك لم تعن بالمتخرجين على غير المنهج الفقهى كابن عصفور واليفرنى وابن الحباب وابن خلدون وامثالهم ، فقل الاقبال على اللغة والادب والتاريخ حتى نضبت مواردها ، ولم يبق من يزاولها ويراودها ، الا من اعيته مشاريع الفقه وروافدها . وكان مؤرخنا من هذا القبيل ، لم يواته الحظ فى العلم وفق رغبته ، فتعاطى ما امكنه حسب مقدرته ، وقد رعى هشيمة حين صوح نبت طبقته .

شيوخه وتخرجه :

العلماء الذين انتسب الى مشيختهم خمسة : احمد القلشانى ، وحفيده محمد بن عمر ، واحمد القسنطينى ، ومحمد البيدمورى ، وابو البركات محمد ابن عصفور ، اما الاول فنقل عنه فى التاريخ ــ بلفظ شيخنا ــ غير مرة ، ويظهر انه كان معنيا برواية الاخبار ، واما الثانى فحلاه فى الشرح بشيخنا وبركتنا ومفيدنا وعمدتنا الخ ولعله كان مختصا به ، وقريب منه الثالث والرابع ، واما الاخير فذكره فى الشرح بلفظ شيخنا الفقيه المحدث المكثر الورع الزاهد ابو البركات محمد ابن الشيخ الفقيه محمد ابن عزوز ! (كذا) واسند عنه

روايته للقصيدة المشروحة عن الحافظ ابن الجزرى عن ناظمها ، ولا وجود لمدرس فى ذلك العصر تنطبق عليه الكنية والاسم والنسب الا ابن عصفور لا سيما وقد كان حين مزاولة الزركشى للتعلم مدرسا بمدرسة ابن تافراجين (انظر ص 139) فهو المقصود جزما ــ ولفظ ابن عزوز من تحريف النساخ ٠

ويؤخذ من جمعه هؤلاء المشيخة ان عهد دراسته بعد 840 لانهم جميعا كانوا فى تلك الحقبة مدرسين ولذلك شواهد من نفس التاريخ عند التتبع ، ومع اخذه عن هؤلاء يظهر ان دراسته كانت شذوا دون ملازمة لان بضاعته فى تآليفه ليست بضاعة عالم متخرج عاني الطلب واتقن الأخذ ٠

مؤلفاتـــه :

لا يعرف له غير هذا التاريخ ، وشرح الدمامينية ، وهى قصيدة فى مدح ابى العباس احمد الحفصى بعثها اليه من مصر سنة 793 ناظمها بدر الدين محمد بن ابى بكر الدمامنى الاسكندرى (763 ــ 828) وهو مترجم بالضوء اللامع (184/7) ونيل الابتهاج (287) وطبقات مخلوف (240) وبغيـة الرعـاة (27) ولم يتعرض لها مصدر من هذه المصادر ، وشرحها مخطوط بالمكتبة الاحمدية تحت عدد 4598 وطالعها :

تجنى فاخفى الجسم والوجد يظهر
ولا ينكر الاخفاء فاللحظ يسحـر
ونعـم منى الطـرف نعمـان خده
على انـه للصب بالقتـل منـــذر

ويستمر فى غزلها الى ان يتخلص بقوله :

طوى نشره ذكـر الغوالى كأنـه
روى عن أبى العباس ذكرا يعطـر

وختـامهـا :

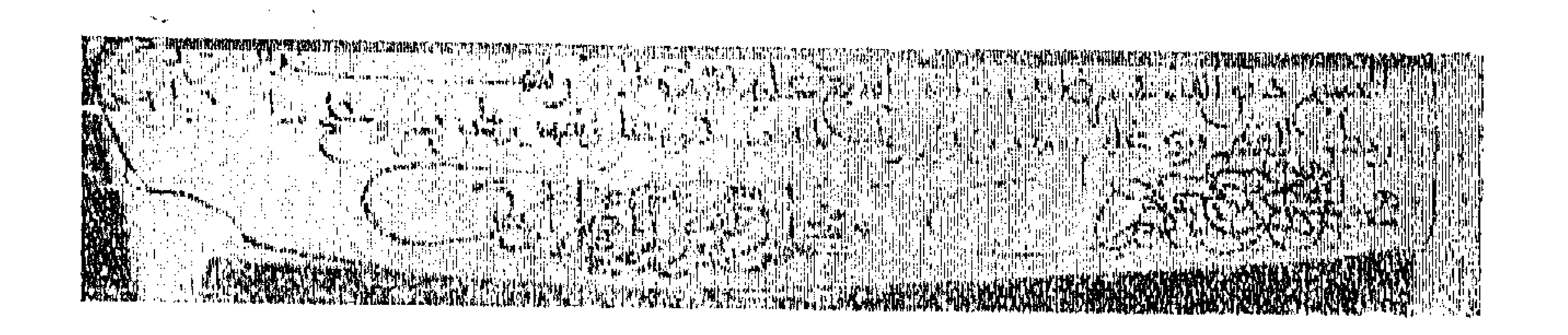
فدم كامل العليا ، فضلك ظاهـر
وعزمـك منصـور وانت المظفـــر

وعدد ابياتها 99 روى الشارح ان الممدوح اجازه بعددها دنانير فبلغه انه استقلها فجعلها له سنوية ٠

والشرح يميل الى الاختصـار ويخـدم القصيـدة ببيـان الغـريب والمعنى والمحسنات البديعية ، وهو فى فنه ليس بذاك لولا ما فيه من الفوائد التاريخية، وليس بآخره تاريخ للتأليف يعين على معرفة حياة المؤلف ٠

عملـــه :

ما رواه من الاخبار فى تاريخه يدل على اتصاله بالدولة ، والمفروض انه من كتابها لكنه لم تكن له رئاسة تذكر ، وقد عثر على عقد اشهاد برسم تحبيس صادر من السلطان عثمان سنة 887 يستخرج من نقوشه وشكله « محمد بن ابراهيم اللؤلؤى» والاسم والاب واضحان فى الاول والنسب فى الآخر مقارب والمرجح موافقة التاريخ (انظر ص 135 فى ولاية الزواغى سنة 887) وهو ممثل بصورته الآتية :



وبتدقيق النظر فيه ومقارنته بنظيره يظهر كبر صاحبه واثر الشيخوخة فى خطه بحيث لا يظن امتداد حياته بعد هذا التاريخ كثيرا

وقد كشف هذا العقد وكونه عطفا على عدل اول ان هذا المؤرخ كان يشغل خطة عدل مختص بالدولة لكنه كان ثانويا بالاضافة الى الكتابة لان كتـــاب الدولة كانوا يشهدون على رجالها من قديم .

نهـــايتـــه :

اذا كان موقف التاريخ عند سنة 882 فالثبت المتضمن رجال الدولة العثمانية ص 134 قد الحق رجالا ولايتهم بعد هذه السنة كالزواغى سنة 887 ، ويجوز ان يكون هذا الحاقا من المؤلف .

كما ذكر فى قضاة الجماعة ولاية الرصاع والوشتاتى وكلاهما تجاوز موقف التاريخ ، والرصاع متوفى سنة 894 فيكون المؤلف موجودا فى هذه السنـــة ، وليس بعدها شيء يظفر بالتسليم ، «وفوق كل ذى علم عليم» .